

اهداءات ٢٠٠١

اد. محمود دياب  
جراح بالمستشفى الملكي المصري

لجنة الضيافة  
بمباركة:  
المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية  
بالقاهرة

# محمد صلى الله عليه وسلم وأسرته

تأليف الدكتور  
مطفى كمال مصطفى

الكتاب السابع  
١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م

يشرف على إصدارها  
محمد توفيق عويضة

\_\_\_\_\_

|

## مقدمة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم  
( ( ونصرت بالرعب على مسيرة شهر ) )

( صحيح )

ناحية تتمثل فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم وجهاده تحتاج الى الابرار والظهور ، تلك هى مجابته للفتن الداخلية والعقبات التى اعترضت دولة الاسلام فى أول نشأتها وتكوينها .

فقد تداولت الأقالام الاسلامية خلق النبى صلى الله عليه وسلم من نواح عديدة وعرضت الرقة واللين والرافة من حياته الكريمة الشريفة . وبينت كيف كان مع أزواجه وذوى قرباه وصحابته ولكنها لم تتعمق كثيرا فى حزمه وجلاله وقوته فى مجابهة أعدائه وكيف جال معهم جولات الشدة والسياسة حتى أقام أقوى دولة ظهرت فى التاريخ من العدم ، وحقق بها أسمى مراتب ما عرف من النجاح والكمال .

ولا شك أن سياسة الدولة الناشئة التى تقوم فى جو من الدسائس والتآمر والفتن والسلوك بها الى مرتبة الاستقرار ثم القوة والسيادة هى أرفع السياسات ولا يقوم بها الا أقدر الساسة وأقواهم ممن تتوفر فيهم أعلى الصفات الشخصية والقوة .

وفى التاريخ أمثلة عديدة من الساسة والقادة والرؤساء ممن نهضوا بجماعاتهم وبوعوها المكانة العالية وخلفوا من بعدهم تراثا تقدم بالانسانية ونهض بها ، ولكن ليس بينهم من حقق النجاح الكامل الشامل كمحمد صلى الله عليه وسلم وحاشا أن يقارن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحدهم وانما هو خطاب لأهل الدنيا بمقاييسهم .

فقد تكاملت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كل نواحي الكمال . فكان آية في الحكمة والكلام الجامع والمعرفة الحققة والعلم الصحيح . وكان نهاية في الخلق العظيم والسلوك القويم . وغاية في شئون السياسة والقيادة . والخطابة وعنوانا في حسن المظهر وجمال السمات وأناقة اللفظ والشوب ورقة الشعور وكل ما يتزين به الرجل المهذب الأنيق في أرقى المجتمعات .

وكل هذه العناصر المتباينة اجتمعت لبدوى أمي يتيم نشأ في بيئة قاسية في جوها وظروفها ليست على شأن إذا قورنت بحواضر ذلك الزمان . فهو لم ينشأ في مدينة من حواضر العلم والثقافة والمدنية كالقسطنطينية أو انطاكيا أو الاسكندرية أو روما . ولم تكن مكة مهما قيل في أنها طريق القوافل والتجارة جديرة بأن تخرج هذا الكمال الانساني في أى وقت من الأوقات ولم يحضر على عالم مشهور أو ينشأ في بلاط حاكم كبير حتى يتعلم المعرفة والحكمة والسياسة ولم تكن تلك البيئة الخشنة لتخرج تلك الرقة والدمائة والسمو .

وذلك برهان على أنه من الله وليس من نفسه أو بيئته .



وان اجتماع الرأفة الشديدة واللين والرحمة مع الحزم والشدة والقوة في شخصه صلى الله عليه وسلم دليل كماله الانساني . فالكمال في التوسط بين النقائص وعلاج المواقف بما يناسبها .

ولقد أكثر قادهوه من القول ان النبي يكون روحانيا خالصا ولا يكون له نصيب من الدنيا . وهذا جهل أو تجاهل . فالأنبياء بشر . والانسان المنصرف الى آخرته فقط التارك لديناه أدنى ممن جمع الآخرة والدنيا . وتفوق في سبيلها . ولقد ضرب الله بالنبي صلى الله عليه وسلم مثلا بالانسان الكامل الجامع في قوة روحانية وسمو معنوياته وفي درايته بالدنيا وخبرته فيها وتفوقه في شئونها فان قارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقادة أو الساسة أو حتى أهل الذوق والجمال لفاقهم ولو قارناه بذيوى الرسائل والروحانيين لكان أفضلهم أجمعين .

ولقد أردت من عرض هذا الموضوع أن أضيف الى ما علم عنه صلى الله عليه وسلم فى نواحى الروح والمعنى ، صفحة عن خبرته فى شؤون السياسة والدنيا .

بل أعرض فى هذه الصفحات فصولاً فى السياسة تستحق أن تؤثر عنه وتسجل وتحلل ، ليستخلص منها ما يفيد الساسة والقادة فى علاج شؤون البلاد .

وبخاصة فى ظرف نجتازه الآن والبلاد تخوض معارك الفتن ومؤامرات التحدى فى الداخل والخارج وتسلق سبيلاً هو الى النصر ان شاء الله والى خير ما يرضاه الله .

ولقد تبين لى من الرجوع الى المراجع غير الاسلامية أن المحايدىن من المؤرخين قد وضعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قمة رجال السياسة ، ذلك بأنهم حكموا على أعماله من نتائجها وحللوها أسباب تصرفاته على ضوء ما تبين لهم الآن وما اتضح من معالمها بعد زمانها . ومن ذلك ما جاء فى دائرة معارف الاسلام فى مواضع عديدة ثقل منها حكمهم على معاهدته مع أهل المدينة من أنها أظهرت مواهبه السياسية الكبرى

it reveals his great diplomatic gifts for it allows the ideal which be cherished of an umma.

وتأثر الكثيرون من مؤرخى الاسلام الحديثين بذلك فحللوا تصرفاتهم على ضوء الدوافع السياسية والنتائج التى حققها .

أما المؤرخون العرب القدامى فقد وقفوا عند حد العرض والتسليم لكونه صلى الله عليه وسلم معصوماً من أفعاله التشريعية يصدر فيها عن الوحي ، وقليلون تنبهوا الى مقتضيات السياسة والظروف فيما فعل . أما رأيى فى ذلك فهو أنه كان صلى الله عليه وسلم يتصرف بلا شك بهدى من الوحي وان نجاحه كان بتوفيق من الله وليس لنا علم بحقيقة دوافعه وتحليل أفكاره ما لم يعرب عنها صلى الله عليه وسلم صراحة فى أحاديثه .

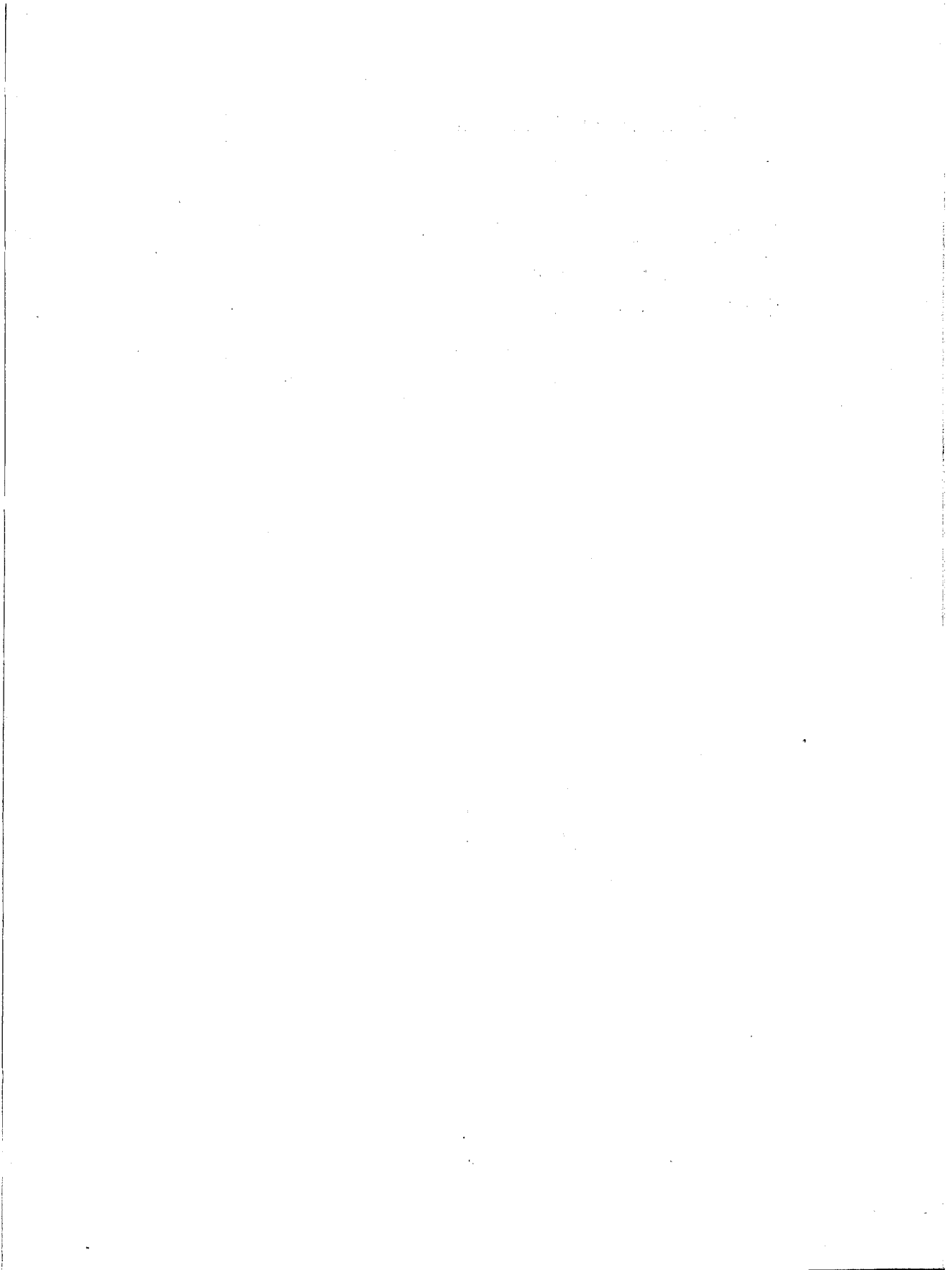
ولقد كتب الكثيرون فيما سموه بالسياسة الشرعية ولكنهم نحووا فيها نحو الفقه ولم يعرضوا أصول علم السياسة كما جاء بها الاسلام مع أنها قد حققت لدولة الاسلام الناشئة في أضيق الظروف وأقساها وأعنفها نجاحا منقطع النظير ومن هؤلاء أبو الحسن الماوردي وأبو يعلى الفراء وابن تيمية وابن القيم الجوزية وابن قنينة وغيرهم ، ولكنهم اقتصروا على التطبيق في بعض النواحي دون التأصيل وتأثر بعضهم بمقتضيات الظروف وقت كتاباتهم .

وتعرضت بعض الكتب العربية لنواح من السياسة . فأورد ابن خلدون في المقدمة آراء سياسية وأورد بعض أصحاب الأخبار في الأغاني والأمالى والعقد الفريد وصبح الأعشى ونحوه طرافات عن السياسة والسلطان . وكتب بعض فلاسفة العرب في هذه النواحي أيضا ولكن لم تكن العناية الكافية بوقائع هذه الملحمة التي نعرضها والتي تستحق كل الاهتمام والتدبير .

ولقد اخترت معركة النبي صلى الله عليه وسلم في دولته الناشئة ضد بنى اسرائيل بالذات لسببين ، أحدهما أنهم من أقسى الخصوم وأقواهم ممن دوخوا الأنبياء من قبله وممن شهد لهم بالدهاء وهم بعد ليسوا الا مثلا لمن يوجد على منوالهم في كل عصر وكل زمان . فلزم عرض أسلوب النبي صلى الله عليه وسلم معهم لبيان معركة من المعارك العنيفة التي خاضها عليه الصلاة والسلام مع هؤلاء الخصوم الألداء وكيف عالجهم حتى انتصر عليهم كما لم ينتصر أحد ممن قبله أو بعده . والسبب الثاني أننا في حرب مع اسرائيل وما زالت تتربص بنا الدوائر وتواجهنا بأساليب المكر والدهاء وتناوشنا من قريب أو بعيد ببعض ما تناوشت به رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام حتى كسر شوكتهم وأذلهم وانتصر عليهم .

ففي هذه الصفحات أعرض لمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل السياسة ، ومنشئ الدولة الاسلامية الفتية الذي جابه أعنف الأعاصير والفتن وقاوم أحد أساليب النفاق والوقيعه وجابه الأعداء فرادى أو جماعات بأنواع من السياسة والحزم والعلاج ، ما بين اللين والتسامح ، وما بين الاعذار والانداز ، وما بين القوة والشدة والبر وما بين الحرب والجهاد . ونراه يصبر ويتجاهل وطورا يحلم ويتجمل . وطورا يوسع ويفسح وطورا يتجلى

بالقهر والعنف والشدة حتى قاد السفينة الى بر الأمان وترك بين أيدي خلفه  
تركة قوية ووسيلة قادرة فعالة فمنهم من أحسن القيام عليها فأنت أكلها  
وأوفت بجنيها وثمارها . ومنهم من نام عنها أو جنبها طريقها فظلم بها وكل  
ذلك والأعداء في كل حين متربصون . وقد رأينا في كل وقت كيف تونع  
الثمار في بلدنا وتبادر الى جنيها كلما بذل في أرضنا الطيبة الجهد والاخلاص  
وكيف وثب صلاح الدين الأيوبي بالبلاد الى ذروة السيادة وكيف شب الى  
قمم النجاح في عصرنا مما يدل على حيوية العناصر وصلاح التربة وخصبها  
ومما يحيى آمالنا في قرب البلوغ وسهولة الوصول .  
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



## الفصل الأول

### صفات بني إسرائيل وأخلاقهم

#### نشأة بني إسرائيل :

نشأ بنو إسرائيل في مصر من نسل أولاد يعقوب عليه السلام الذين هاجروا إليها عقب دخول يوسف عليه السلام الى مصر وتبوئه أمانة الخزانة منها واستدعائه لأبويه واخوته بنيامين والأسباط عليهم السلام .

ويعقوب هو إسرائيل وقد سماه الله كذلك في قوله تعالى « كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه » . ( آل عمران - أول الجزء الرابع ) .

وكان يعقوب مسلماً على ملة آبائه إبراهيم واسحق ووصى بنيه من بعده بالاسلام وقال الله تعالى « ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب : يا بني ، ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتن مسلمون » ( البقرة الآية ۱۳۲ ) وقال « اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد الهك واله آبائك إبراهيم واسماعيل واسحق ، الهنا واحدا ونحن له مسلمون » ( البقرة الآية ۱۳۳ ) .

واذا كان الأنبياء على دين الاسلام فان أقوامهم قد انحرفوا عنه وقال الله تعالى « انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا » ( المائدة ۴۴ ) وقال « ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم » ( آل عمران الآية ۱۹ ) .

ولما بعث الله موسى وهارون عليهما السلام ، طلبا من فرعون أن يرسل  
معهما بنى اسرائيل مهاجرين من مصر بعد أن استحكمت فيهم الظلم ، يقتل  
أبناءهم ويستجيب نساءهم أى يتركهن على الحياة .

ثم هاجر موسى وهارون بنى اسرائيل شرقا طالبين فلسطين ، فادركهم  
فرعون عند البحر ، فأوحى الله الى موسى أن يضرب بعصاه البحر فانفرد  
ماؤه عن طريق سلكه بنى اسرائيل وتبعهم فرعون وجنوده ونجى الله موسى  
وقومه وأغرق فرعون ومن معه فى البحر .

نعمة الله على بنى اسرائيل :

وقال الله تعالى مذكرا بنى اسرائيل بنعمته عليهم « يا بنى اسرائيل  
اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى  
فارهبون » (سورة البقرة الآية ٤٠) .

وقال «يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وانى فضلتكم  
على العالمين » « واذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون  
أبناءكم ويستجيبون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم . واذ فرقنا بكم  
البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون . واذ واعدنا موسى أربعين  
ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . ثم عفونا عنكم من بعد ذلك  
لعلكم تشكرون . واذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون » وقال  
« وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما  
رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (سورة البقرة الآية ٤٧ وما  
بعدها) .

وقال الله تعالى فى محكم كتابه « واذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا  
نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا  
من العالمين » (سورة المائدة الآية ٢٠) .

وقال الله تعالى « وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون (يعنى بنى  
اسرائيل) مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك  
الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا » (الاعراف الآية ١٣٧) .

ذلك بأن الله بعد أن أنجاهم من ذل فرعون لهم ، وتجلى عليهم بآياته  
البيئات فشاهدوا نصر الله لهم وآياته الخارقة للعادات بأن فرق البحر وفجر لهم  
العيون وأرسل عليهم المن والسلوى وهما من أنواع الطعام قيل الأول مثل  
العسل والثاني هو طير السمانى ( السمان ) وبعد أن عفا عن ظلمهم وكفرهم .  
مكن لهم فى الأرض وجعل لهم دولة وملكا ، وكان للمكهم نبي الله سليمان  
عليه السلام ملكا لا ينبغى لأحد من بعده وحشرت له الجن والسباع والطيور  
وأرسل الله فى بنى اسرائيل الرسل وأوحى الى الأنبياء منهم وكان آخرهم  
زكريا ويحيى والمسيح عيسى ابن مريم عليهم صلوات الله وسلامه .

#### موجبات غضب الله على بنى اسرائيل :

الا أنه بدت من بنى اسرائيل صفات غضب الله عليهم بها . وقد فصل  
الله أسباب ذلك فى القرآن الكريم ، وجعلهم مثلا لنوع من الناس يظنون  
أنهم - وقد أنعم الله عليهم مرة - الشعب المفضل المختار مهما أتوا  
من الموبقات فيغتربون بما أنعم الله عليهم به من الايثار والعلم ويركنون الى  
ذلك فلا يصبرون على مكروه وينكثون العهد ارتكازا على ما آتاهم الله من  
فضله وتشيع فيهم الفاحشة والاثم ولا يتساهون عنه ، ويستغلون العلم  
ويكتمونه عن الناس ويبدلونه ويجادلون بالباطل ويستخدمونه فى غير موضعه  
وفى طلب الدنيا ويقتلون دعاة الخير. وفى ذلك ايشار للدنيا على الآخرة مما  
يجعل الله يصفهم بالكفر والاشراك والنفاق .

وهذا النوع من الناس من أخطر أعداء الله على أنفسهم وعلى المجتمع  
وهم فى كل مكان وزمان وضرب الله بنى اسرائيل مثلا عليهم . ومنهم علماء  
السوء الذين يلبسون الحق بالباطل ويضلون الناس باسم العلم .

ومنهم أناس كانوا من الصالحين فتح الله لهم وجهها من المعرفة  
فاستدرجوا بها وهم لا يشعرون . ومنهم ولد الرجل الصالح يركنون الى  
بركته ويتهاونون . ويركبون الرخص ولا يلتزمون حدود الله ويقولون  
سيغفر لنا . أو من يتجر بالدين ابتغاء النفوذ أو المال أو غير ذلك .

ومن المؤكد أن ذنب الجهال ، على قبحه أصغر من ذنب أهل الدين  
الظاهرين بالعلم به . والحبيطة داخل الدين وفي رحابه والحساب فيه أدق منه  
خارجه وقيل حسنات الأبرار سيئات المقربين . فكيف حال من فتح الله عليه  
بوجهات من القرب والعلم فأعرض عنها واشترى بها متاع الدنيا وغره دينه  
وضل سعيه وهو يحسب أنه يحسن صنعا .

ولذلك فإن قصص بنى اسرائيل فى القرآن ليس سردا تاريخيا أو نذيرا  
لهم وقت نزوله ، ولكنه تحذير دائم لمن ينحرفون بالدين ، ويركبون متنه الى  
سبل الدنيا غافلين عن غضب الله عليهم . وان اثم العالمين أفدح من اثم الضال  
الجاهل .

**الوجوب الاول : ركونهم الى تفضيل الله لهم :**

وقد فصل الله السبب الأول السابق ذكره من موجبات غضب الله على  
بنى اسرائيل ، وهو ظنهم أنهم يظلمون الشعب المختار المفضل مهما أتوا من  
الآثام بقوله : « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأجباؤه قل فلم  
يعذبكم بذنوبكم » . ( سورة المائدة الآية ١٨ ) .

وقوله « وقالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودة قل اتخذتم عند الله عهدا  
فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون » . ( سورة البقرة  
الآية ٨٠ ) .

وقال « فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا  
الأدنى ويقولون سيغفر لنا » . ( الأعراف الآية ١٦٩ ) .

ولا شك أن هذه العقيدة تورث العجب والكبرياء كما تورث الغرور  
( أى الانسياق وراء الباطل ) والعنصرية والتعصب للجنس واحتقار الغير  
وكرهيته بلا سبب . كما تؤدي الى الجدل بالباطل والتشبث بالرأى بسبب  
العجب .

وفى ذلك رد على اختيار الله وتفضيله لهم فى وقت ليس معناه أن يظلموا  
المختارين ولو ساء حالهم . لأن الاختيار منوط بالتزام الأفضلية والمحافظة على  
سببه . أما اذا انفك عنها المختار لم يعد ثمة سبب لأن تظل له أفضلية .

أما اختيار الله لهم وهو أعلم بميولهم فسببه أفضليتهم وقت الاختيار وانما كل ابن آدم خطأ سريع أن يرد الى الفساد . قال الله يرد على قولهم نحن أبناء الله وأحباؤه « بل أتسم بشر ممن خلق » . ( سورة المائدة الآية السابقة ) أى يصيبكم ما يصيب سائر الناس من الفساد عند العجب والغرور .

### الموجب الثانى : سوء استعمال العلم :

أفاض الله على بنى اسرائيل فيوض العلم فأساءوا استعماله ووجهوه غير وجهته واغتروا به ووالاهم العجب ففسدت قلوبهم .

أما أن منهم علماء فقد شهد الله بذلك فى كثير من الآيات كقوله « أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى اسرائيل » . ( الشعراء الآية ١٩٧ ) . ولكن منهم الأميون الذين لا يعلمون الكتاب الا أمانى . فليسوا سواء فى العلم . كما أن جداهم مع النبى صلى الله عليه وسلم - وان كان عن سوء طوية - الا أنه يشهد بتبجرهم .

وممن ورد ذكرهم ممن فتح الله عليهم فى العلم فأساءوا استعماله السامرى وكان من أصحاب موسى عليه السلام فلما ذهب للقاء ربه فتن قومه فأخرج لهم عجلا جسدا من الذهب له خوار وقال له موسى « فما خطبك يا سامرى قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى » ( طه الآية ٩٥ وما بعدها ) . فقد قيل فى ذلك ان الله كاشفه واختصه برؤية جبريل عليه السلام . وكانت الروح والحياة تدب اثر خطاه . فأبصر بذلك دون غيره فقبض قبضة من أثر أقدام جبريل عليه السلام وخلطها بالذهب فخار العجل وفتن به قومه .

ومن ذلك أيضا قارون وكان من قوم موسى وقال الله فيه « وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة » قيل يعنى فتح الله عليه فى علم الكنوز فلما أنبه الناس « قال انما أوتيته على علم عندى أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا » . ( القصص الآيات ٧٨ وما بعدها ) .

وقيل منهم أيضا من ورد فيه « واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين » قيل وهو عالم من علماء بنى اسرائيل اسمه بلعم بن باعوراء أوتى علم بعض كتب الله وقيل كان عنده اسم الله الأعظم وروى أن قومه طلبوا منه أن يدعو على موسى ومن معه فأبى ولم يزالوا به حتى فعل (١) . وقال فيه الله « ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » ( الأعراف الآيات ٧٦ وما بعدها ) .

ومن فساد بنى اسرائيل أن يكتموا العلم ويلبسوا الحق بالباطل وأن يجادلوا بغير الحق ويشترخوا بالعلم وآيات الله ثمنا قليلا ولا يتعظون بما يظهره الله لهم من الآيات .

وقال الله فى كتمانهم العلم « وتكتُمون الحق وأنتم تعلمون » . ( البقرة الآية ٤٢ ) .

ولقد بدل بنو اسرائيل الكثير مما أنزل اليهم من بعد ما كتموه وجعلوه سرا بينهم وقال الله تعالى فيهم « وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه » . ( البقرة الآية ٧٥ ) وقال « يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله » . ( البقرة الآية ٧٩ ) وقال « يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به » ( سورة المائدة الآية ١٣ ) . وعن ابن مسعود رضى الله عنه قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية وتلا هذه الآية « فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم » . ( البقرة الآية ٥٩ ) .

ودل على استغلالهم العلم وشرائعهم به متاع الدنيا ما ذكرناه من قصة قارون وبلعم بن باعوراء والسامرى . فأولهم استغل علمه فى الشراء والأبهة وثانيهم فى نعيم الدنيا ورضا أهلها وثالثهم فى النفوذ والسطوة ومنه اتباعهم ما تتلو الشياطين واستعمالهم السحر وقال الله تعالى « نبذ فريق من الذين أتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم » . ( البقرة الآية ١٠١ ) وقال الله

(١) شرح النسفى الجزء الأول صفحة ٥٨٨ .

تعالى « ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا » وقال « بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا » (سورة البقرة الآيتين ٤١ و ٩٠) .

أما الانصراف عن الله من بعد ما يبين للعبد آياته فهو من أشد موجبات غضب الله وهو من قبيل الكفر والجحود . لأن آيات الله غالية وليس اظهارها الا غاية فى التفضيل والتقدير . فاذا جحدتها من ظهرت له من بعد ما بينها الله كان ذلك اغماطا لها واحتقارا لشأنها وهو من أشد ما يؤاخذ عليه وبه يغلظ قلبه وقال الله تعالى « سل بنى اسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فان الله شديد العقاب » (البقرة الآية ٢١١) .

**موجبات أخرى : نقض العهود واثبات المعاصى والانحلال وعدم الصبر على الكاره :**

لما هاجر موسى عليه السلام بقومه هربا من فرعون ونجاهم الله منه كان حقا عليهم أن يؤمنوا بسوسى وهارون ورسالتهما ، ولكن لما واعد الله موسى لميقاته بالطور وترك قومه أربعين ليلة ، زين لهم السامرى أن يعبدوا عجلا صنعه لهم من الذهب وجعله يخور كما قدمنا . ورجع موسى من الموعد ومعه الألواح فيها حكم الله وهو التوراة فلما وجدهم انصرفوا الى العجل غضب وألقى الألواح وعنفهم وأخاه . قال الله تعالى « ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون . واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة « الزلزلة الشديدة » قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل واياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ ان هى الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين . واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة انا همدنا ( رجعنا وتبنا ) اليك قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء فساكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبى الأمى ( محمد ) الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم ( التكاليف الصعبة التى فى التوراة ) والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه

واتبعوا النور ( أى القرآن ) الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون » ( الاعراف الآية ١٥٤ وما بعدها ) .

وبعد هذا الميثاق عاد شعب بنى اسرائيل يستصعبون أحكام التوراة فأرسل الله جبريل فاقتلع الجبل ورفعہ كأنه ظلة وقال لهم موسى اقبلوا التوراة والا ألقى عليكم الجبل وفى ذلك يقول الله تعالى « واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور » ( سورة البقرة الآية ٦٣ ) وقال كذلك « واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم » ( الاعراف الآية ١٧١ ) .  
ومنه أيضا « واذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتهم الا قليلا منكم وأنتم معرضون . واذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتهم وأنتم تشهدون ، ثم أتتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان وان يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم اخراجهم أفترؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون . أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون » ( سورة البقرة الآيات ٨٣ وما بعدها ) .  
وقد يكون اعراض بنى اسرائيل عن المواثيق وخلفهم لعهدهم سببه حب الحياة وايثارها والجبن وعدم تحمل المشاق .

ومما يدل على ذلك قوله تعالى « واذ قلت يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها » ( البقرة الآية ٦١ ) ومنها قصة طالوت التى جاء فيها قوله تعالى « فلما فصل طالوت بالجنود قال ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فانه منى الا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه الا قليلا منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » ( البقرة الآية ٢٤٩ ) .

ويدل عليها عصيانهم لموسى وهم فى طريقهم الى الأرض المقدسة والتى قال الله فيها « يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا

على أذباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا يا موسى ان فيها قوما جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فانا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين قالوا يا موسى انا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون . قال رب انى لا أملك الا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين . ( سماهم الفاسقين لخروجهم عن الطاعة ) ( سورة المائدة الآيات ٢١ وما بعدها ) .

وقد وصفهم الله بحب الحياة فقال « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة » ( البقرة الآية ٩٦ ) كما أنهم كانوا يحبون المال حبا جما ويشترى علماءؤهم - كما قدمنا - بآيات الله ثمنا قليلا . وكذلك كانوا يحبون اللهو والمتعة فقد جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « كانت بنو اسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم الى بعض وكان موسى يغتسل وحده فقالوا والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا الا أنه آدر » « رواه البخارى فى كتاب الغسل با ب من اغتسل عريانا وحده فى الخلوة ومن تستر فاستر أفضل » وعن ابن مسعود قال ؟ كان الرجال والنساء من بنى اسرائيل يصلون جميعا فكأنت المرأة تتشوف للرجل فألقى الله عليهن الحيض ومنعهن المساجد . وربما ألقى عليهن الاستحاضة أى دوام نزول الدم وعدم انقطاعه اذ أنه ورد فى الحيض قول النبى صلى الله عليه وسلم « هذا شىء كتبه الله على بنات آدم » وجاء عن عمرة بنت عبد الرحمن عن عائشة رضى الله عنها « لو أدرك النبى صلى الله عليه وسلم ما أحدث النساء لمنعهن من المساجد كما منعت نساء بنى اسرائيل » . قال يحيى بن سعيد لعمره : أو منعن ؟ قالت نعم .

ثم انهم بعد ذلك كانوا لا يتناهون عن السوء وسبب ذلك هو انحلال عقدة المجتمع فيهم . اذ عدم التناهى اما أن ينشأ عن شيوع الفاحشة والاثم فلا ينهى غيره حتى لا ينهاه أو يعيره ، أو بسبب الكبرياء مخافة أن يصده اذا نهاه . وقال الله تعالى « لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان

داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » ( المائدة الآية ٧٨ ، ٧٩ ) .  
ولا شك أن ذلك من أسوأ مظاهر السقوط والانحلال فى المجتمع ولا يجد من بعده عاصما يعصمه من الانهيار والتداعى .

ولم يقتصر الأمر على الكف عن التناصح ، بل زاد الى كراهة دعاة الخير بل الى قتلهم وقتل الأنبياء . وهكذا استبد بهم حب الدنيا والمال والمتعة الى حد الاجرام وسفك الدماء بغير الحق . وقد وردت فى ذلك كثير من الآيات منها قوله تعالى « أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون . » ( البقرة الآية ٨٧ ) وقوله فيهم « ان الذين يكفرون بأيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم » ( آل عمران الآية ٢١ ) وغير ذلك كثير .

ولعل آخر ما ارتكبه بنو اسرائيل فى ذلك قتلهم يحيى عليه السلام لما جاء مبشرا بعيسى ، فقد أزعجهم كثرة نذيره وتأييه لهم على ترفهم وفسادهم وسوء حالهم فقتلوه . وكذلك فقد ائتمروا بالمسيح عيسى عليه السلام فرفعه الله اليه وقتلوا شبيهه وهم لا يعلمون .

وهكذا كان شأن بنى اسرائيل فى اتيانهم المعاصى وكراهتهم للنصح وسدورهم نحو الباطل يجادلون فيه ويقتلون الذين يأمرون بالخير ولا يتناهون بينهم عن الرذيلة . وليس من وصف لمجتمع بأقذع من ذلك الذى أورده القرآن فيهم .

### النتيجة :

والنتيجة هى أن كثرة الآثام والمعاصى أغلظت قلوبهم وأظلمتها وجعلتها غلغا وقاسية واذا أظلمت القلوب وقست قويت فى النفس سورة الشر واعتادتها فلا تعود تتردد فى ارتكابه بل تعتاده ويسهل عليها ولا تؤاخذ نفسها عليه .

وقال الله تعالى فيهم « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وان منها لما يشقق فيخرج

منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون » ( البقرة الآية ٧٤ ) وقال أيضا . فيما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا » ( النساء الآية ١٥٥ ) وقال أيضا « فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم الا قليلا منهم » ( المائدة الآية ١٣ ) .

ومما نتج عن ذلك بسبب غضب الله عليهم وانصراف قلوبهم الى جهة المعاصي ان شق الله عليهم في التكليف . وقد تشددوا في البقرة فشدد الله عليهم ( في سورة البقرة الآيات ٦٧ وما بعدها ) وعصوا موسى عليه السلام في دخول الأرض المقدسة فتأهوا في الأرض أربعين سنة .

وقال الله تعالى « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم » ( النساء الآية ١٩٠ ) ثم ان الله قد حمل عليهم أمدا في التكليف لشدة نفوسهم وحاجتها الى التقويم . وان الاسلام جاء تخفيفا لهم ولم يؤمنوا به فأبوا واستكبروا . وقال الله تعالى « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال التي كانت عليهم » ( الاعراف الآية ١٥٧ ) .

ومما ابتلاهم الله به نتيجة لما سبق ، خصلة النفاق . فكانوا فيما بينهم يتناجون بالاثم والعدوان والمعصية ، ويظهرون أمام الناس الورع والتقوى والتدين ويعيبون عليهم تفریطهم . كما كانوا ينملقون الظالمين ويخضعون لهم . وفي ذلك قال الله تعالى « واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون » ( البقرة الآية ١٤ ) وقال أيضا « واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلا بعضهم الى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون ؟ » ( البقرة الآية ٧٦ ) وقال فيهم « أتأمرون الناس بالبر وتتسون أنفُسكم وأنتم تتلون الكتاب ؟ » ( البقرة الآية ٤٤ ) وقال الله « ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا . لبئس ما قدمت لهم أنفسهم ان سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون . » ( المائدة الآية ٨٠ ) .